مُناقشات

دراسة بعيدة عن الموضوعية ..

بقلم عبد الملك مرتاض

نتتبع حكاية شعبية في الجزائر خلاصة فكرتها ان رجلا ظل يعبد الله تسعين سنة ، فلما دنا أجله ، كفر بالله فمات كافرا . كما نعرف واقعة أخرى ثورية ، ولكنها حقيقية ، وهي ان رجلا ظل يناضل من أجل الشعب دهرا طويلا ، حتى اذا ثار شعبه ، واستعصم بالجبال ، وانبرى الى المقاومة المسلحة ، تنكر له ذلك المناضل القديم ، فلفظه الشعب حتى مات منبوذا . وهاتان الحالان المحزنتان تنطبقان على الجهود التي كان الدكتور سيد حامد النساج بذلها في مجال النقد التقليدي ، فلما أخذ عوده يقوى قليلا ، أحبط اعماله السابقة كلها في مقالة واحدة ، زعم انها نقدية ، ونشرها في مجلة « الآداب » البيروتية الغراء ، في عددها الصادر في يناير ١٩٧٨ ، وذلك حول رواية « نار ونور » التي نشرتها دار الهلال بالقاهرة في اواخر سنة ١٩٧٥ .

وقد أحزنني أشد الحزن ان يؤول امر النقد العربي الى هذا الدرك والى تصفية الحسابات الشخصية . ولما وقعت على « الآداب » ورأيت ذلك العنوان سولت لي نفسي مع ذلك بأنني سأقرأ مقالا علميا ، ولا علي ما يكون فيه من عنف ، ما قام على منهج موضوعي خال من الهوى ، بعيد عن الانشائية والديماغوجية ، بريء من الذاتية الصارخة . ولكن المفاجأة ، ولا مفاجأة ، ان شيئا من ذلك لم يكن ! وانما اخذت أقرأ كلاما هجائيا يقطر حقدا .. وقد كان كتب كثير من النقاد منهم أخوان من مصر ، وهما ماهر قنديل ، وحسن فتح الباب ، وأخ من العراق ، وباقون من الجزائر ، عن هذه الرواية ، فذم منهم من ذم ، ومدح من مدح ، ونقد من نقد ، ولكننا لم نرد قط على احد منهم ، لأننا نؤمن بحرية الرأي ، وجدوى الحوار ، ما سلمت النية . اما اليوم ، فنحن مضطرون الى الرد على النساج لأن مقاله لا يمثل لا العلم ولا النقد ولا الموضوعية .

وقبل ان أشرع في مناقشة الصديق القديم الاخ النساج فقد كان يجب الا يتعرض لشخصي باستخفاف وازدراء ، وبهذه الروح الاستعلائية، وكأنني مجرم فر من وجه العدالة ، او متهم بالخيانة العظمى أفلت من قبضة الجزاء .. هل للنساج في ذلك حجة علمية ؟ قد يقول : ان هيوليت تين أقام نقده على ثلاث : تأثيرات العرق ، والبيئة ، والزمان . وكان على القراء ان يعرفوا عن صاحب الرواية بعض المؤثرات التي اثرت في عمله الادبي .. وليأذن لي النساج ان اتجاسر على آرائه الفائلة ، وان أرفع في وجهه عصا العصيان ، فاعتبر « نار ونور » رواية من الروايات التي يقرأها الناس ، وتصور جانبا من الثورة الجزائرية بصدق ، على ما فيها من اخطاء فنية كثيرة . ولكن اي عمل فني سلم الناس بكماله المطلق ؟

بيد ان اقول النساج المفترض لا يقوم ، لسببين :

اولهما : ان نظرية تين لا تدرس الان الا في المتاحف . والنظريات النقدية المعاصرة تنكرها ولا تعيرها اهتماما كبيرا . وان لم يصدقني صاحبي فليقرأ كتب الغرب . فاذا ذهبنا الى انه لا يقرأ آخر النظريات النقدية الغربية في بعض لغاتها الاصلية ، قلنا له : بأن معظم النقاد الغربيين المعاصرين يرفضون هذه النظرية ولا يذكرونها في كتاباتهم الا من أجل ان يدحضوها ، ومن هؤلاء جنيت ، وبارت ، وفوكولت .

واذن فبأي حجة ذكر المكاتب حياتي وحاول ان يدنسها ظلما وعدوانا طورا ، وجهلا وتجاهلا طورا ثانيا ؟ قد قلنا : انه لا يبرح يعيش على نظريات القرن التاسع عشر النقدية التي كان يروجها تين وسانت بوف . ولكننا رأينا قاطحل الغرب لا يؤمنون اليوم بهذه النظريات ، الا من تعلق منهم بالماضي السحيق . فذكر النساج لحياتي لا يعني الا تعلقه بنزعة نقدية متخلفة ، لأنها نظرة رومانسية أبلاها الزمان ، وأكل الدهر عليها حتى شبع . فهي النظرية التي أرادت ، كما يقول اندري أكون ، ان تضمن النشاط الادبي شيئا آخر غيره ، وتخضعه لعلاقة تاريخية تربط الكاتب بحياته ونفسيته وزمانه ... ان مثل هذا النقد الذي يبني حول الرواية المدروسة ، رواية أخرى يزعمها هي الصحيحة ، ناسيا الموضوع الأدبي كما هو ، لهو نقد لا يعدو ان يكون كلاما مركوما على كلام ، وكتابة جاثمة على كتابة اخرى (الأدب من الرمزية الى الرواية الجديدة ص. ٩٣ — ١٠١) .

اني لا اعتقد ان مثل هذه النظرة أصبحت تمت الى النقد العلمي بصلة وثقى . ولكن مصيبة النقد العربي لا يبرح ، بوجه عام ، عبارة عن تعليقات مرسلة ، وانطباعات غاضبة ، او تقريظات تافهة . وقد نشأ عن هذه الظاهرة الشاذة ، اندساس اشخاص معقدين طورا ، وجهلة ضيقي الافق طوراً ثانيا ، في أسرة الأدباء وراحوا يعبثون . ان النقد الحق لم يعد تعليقا انطباعيا غاضبا مفرضا على الخيال ، كنقد النساج .. بل لقد أصبح عالما ضخما من الحقائق التي يتوصل الناقد اليها بواسطة دراسة هادئة معمقة يجريها على النص الادبي كاتبه ، وبتوظيف الألفاظ لفهم الصور والمعاني . ولا يمكن ان يحكم بشيء الا بعد استنتاجات تقوم غالبا على ارقام مقارنة ، ونسب مئوية ذات دلائل مختلفة . ان النقاد المغربيين تخلصوا من مثل هذا الذي يصدر عن النساج وامثال النساج على انه نقد ، من حيث هو كلام ممزق يقوم على الانطباع الشخصي ، او الاجتهاد السطحي ، او على الحقد والحسد ، وهذه أسوأ أحواله . ولو قام النساج بتجربة علمية من هذا النوع ، لاهتدى بسهولة وبدون قصد ولا شعور ، بناء على المعطيات الناشئة عن دراسة النص دراسة مورفولوجية ، الى ان لكاتب « نار ونور » اسلوبا خاصا به ، وقاموسا فنيا يميز كتاباته . ولكن ما اكثر ما تضيع الحقائق في أوحال الجهل ! فلو كان مقالك هذا مثلا اقصوصة ، لاجرينا فيه دراسة من هذا الجنس ، ولأهتدينا الى نفسيتك واسلوبك بدقة تحددها الارقام : أي الالفاظ اكثر ورودا ؟ واي الصفات اقل استعمالا ؟ وهل كانت جملك طويلة او قصيرة ؟ وكم كان عدد القصير منها والطويل ؟ وما خصائص الطويلة ومميزات القصيرة ؟ ولم كنت تصطنع « جدا جدا » بكثرة ؟ ولم لم تستعمل العبارات الدالة

على الهدوء النفسي والتعقل والمنطق العلمي الرزين ؟ ولم كثرت الفاظ الطيش والنزق والغضب ؟ وما شئت من هذه الاسئلة التي قد لا تنتهي، لأن كل حالة ستنشأ عنها حالة اخرى ، وكل نتيجة ستحتاج الى نتائج تدعمها وتسندها . اما ان يجيء ناقد يعمل خياله الجامح في نص رواية ، ليكتب عنها رواية ثانية مزيفة يكون بطلها الاساسي « الخلاصي » هو هذا الناقد نفسه ، في حين يمثل كاتب الرواية الشخصية الثانوية الضحية ، ولكنها من نوع « الكومبارس » ، فذلك امر يرفضه العلم .

وثاني السببين : لنعتبر ما ذكره النساج من حياة كاتب « نار ونور» حقا له ، لان حياة اي كاتب ملك للناس جميعا ، فما قوله في الكذب الذي نسجه من حول شخصي ؟ وكيف يقوم حكم على كذب ؟ وكيف نستطيع ان ننتهي الى نتيجة علمية اذا كان الاستنباط كاذبا مكذوبا ، وباطلا مرفوضا ؟

ولكن اين هذا الكذب ؟ ولم استعمال هذه اللهجة ؟ اما الكذب فسنكشف عن مواطنه ووقائعه من مقال النساج ، بعد حين . واما هذه اللهجة فهي من جنس لهجة الاستاذ النساج ، فمن اطلع من القراء على مقاله فقد عرفه ولا يفتقر الى ان اصفه له ، ومن لم يطلع فانني أنبئه بأن هذا المقال كان غير مهذب ، فكأن صاحبه يكتب في الغابة لمن في الغابة . ولأول وهلة يدرك الذكي والغبي ، ان لهجة هذا الكاتب لم تهذبها الحضارة ، وبعدمها الالتزام الاخلاقي ، واللياقة التي تعارف عليها الكتاب . وبعض هذه الصفات في الحقيقة من خصائص شخصية النساج المعقدة .

والذي يطعن في احكام النساج وآرائه الاخطبوطية انه ظل يعمل تحت مسؤولية صاحب « نار ونور » ما يقرب من اربع سنوات . وبالاضافة الى ان نقاد الحديث كانوا يقولون : ان المعاصرة حجاب ، فان الذي يضعف من موقفك اكثر ، أنك لا تستند الى المعاصرة والمخالطة وحدهما ، وانما الى علاقة أستاذ برئيس قسم . ويشهد الله انني امقت هذا السخف ولا ارتضي لنفسي الخوض فيه ، ولكنني مرغم على شرح بعض الأمور للقراء ، حتى يدركوا ما في الزوايا من خبايا .

ولأعد الآن الى مقال صاحبي لأحاول الرد على بعض ما جاء فيه ، وسأركز بوجه خاص على تصحيح الاخطاء التي وقع فيها الكاتب ، حول تاريخ الثورة الجزائرية وما يتصل بها ، وحول بعض مراحل حياتي التي نهشها . اما رأيه في الرواية ، فأعتبره وجهة نظر شخصية ، لا حكما علميا مسلما ، لانه عدم العلمانية وحرم الموضوعية ، ونبا عن المنهج النقدي المعاصر الذي يقوم به الحذاق الأعمال الأدبية . ومع ذلك فاني احترم وجهة النظر تلك على علاتها .

فقد نعى علي الدكتور النساج انني لغوي ، وانني اقرأ للجاحظ وبديع الزمان ، في الوقت الذي بقي هو بين بين : فلا هو ممن يهضم التراث ويفهمه حق الفهم ، ولا هو ممن ألم بالدراسات المعاصرة التي تمج بها نوادي الغربيين وأسواقهم ، وانما تعلق بنظريات مترجمة ترجمة سلبمة طورا ، ومشوهة اطوارا أخرى ، كانت موضة أدبية شائعة في القرن التاسع عشر ، وبعض هذا القرن ، فضل السبيل ، وضاع منه الطريق على حد تعبيره ، بل على حد تعبير نزار قباني .

اما المضحك في مقاله فهو قوله : « كان المؤلف الاستاذ عبد الملك مرتاض الجزائري ، قد التقى مصادفة والاستاذ صالح جودت رئيس تحرير الهلال في مؤتمر الفكر الاسلامي بمدينة تيزي وزو بناحية وهران (!) في الجزائر ، عام ١٩٧٢ . حيث انتهز المؤلف فرصة اللقاء العربي الاخوي والقومي ، كما استغل حاجة القارىء العربي الى مزيد من التعرف ــ بالفن ــ الى الثورة العربية الفريدة في الجزائر ، مستغلا كذلك فرصة اتساع رقعة انتشار روايات الهلال التي تطرح آلاف الاعداد في السوق ... » .

ان الذي يتأمل هذا النص الذي ورد في كلمة الدكتور النساج يلاحظ ما يلي :

١ ــ « مرتاض الجزائري » : فلم اصطنعت هذه النسبة ؟ وما كان هدفك الادبي من ورائها ؟ وماذا يقال عنا ، لو قلنا : « الاستاذ النساج المصري » ! والشاعر نزار قباني السوري ، وجبران خليل جبران اللبناني ، وهلم جرا من هذه الانساب التي تكثر من الديار ، وتعدد من الجنسيات ، بدون اي معنى قومي . انها عبارة ، في رأيي ، سمجة ، ولا تليق بأسلوب اديب له ذوق أصيل ان يصطنعها في كتابته ، بصرف النظر عما فيها من نيل سياسي ، واعتبار الامة العربية جنسيات مبعثرة هنا وهناك .

٢ ــ « بمدينة تيزي وزو بناحية وهران ، في الجزائر عام ١٩٧٢ ». وهذه العبارة القصيرة فيها خطآن اثنان :

اولهما جغرافي او مكاني ، وهو « تيزي وزو بناحية وهران » ، فالله يعلم والملائكة والجغرافيون ، وحتى العاديون من المستنيرين من الناس ، ان تيزي وزو هي نفسها عاصمة لولاية ، مثلها مثل وهران ، بهذه جامعة ، وبتلك جامعة اخرى . وكل هذا ليس مهما ، وانما الاهم الحاق تيزي وزو بوهران ، مع ان بينهما ما لا يقل عن مسافة ٥٢٥ كلم . فتيزي وزو تقع في الوسط الشرقي من الجزائر ، من حيث تقع وهران في أقصى الغرب . فكيف غاب عن الدكتور النساج هذا ؟ اننا لا نلومه لانه يجهل الجغرافية ، فهو أستاذ ادب قبل كل شيء ، وانما نلومه لأنه قضى بهذه الديار اربع سنوات ، ولم يستطع ان يتحقق من مواقع المدن الكبرى فيها ، فكيف بتاريخ الاشخاص واتجاهاتهم ؟

وثاني الخطأين ، تاريخي او زماني ، وهو ان كاتب الرواية

وثاني الخطأين ، تاريخي او زماني ، وهو ان كاتب الرواية لم يلتق بالمرحوم صالح جودت في عام اثنين وسبعين كما زعم النساج ، وانما التقى معه في سنة ثلاث وسبعين .

٣ ــ « ... انتهز المؤلف فرصة اللقاء ... مستغلا كذلك فرصة اتساع رقعة انتشار روايات الهلال ....» فبالاضافة الى ما في هذه اللهجة من عناصر الحسد البادي الذي لا ينبغي ان يتحلى به رجل جامعي ، فاني لا ارى اين موطن الذنب ؟ وماذا قدم كاتب « نار ونور » الى الهلال من مال او مغريات حتى تنشر له روايته ؟ وماذا كانت تفيد العلاقة الشخصية العابرة التي ربطت الكاتب بالمرحوم جودت ، في عمله الادبي اذا كان تافها حقا كما تزعم ؟ وكيف غاب عن لجنة القراءة في دار الهلال هذا العلم العظيم الذي طالع الناس به شخص يقال له النساج؟ وكيف فاته ان يؤثر على القوم ، وقد كان يعود الى القاهرة كل صيف من الجزائر ، وقد كنت اخبرته بان الرواية تحت الدراسة ، وان الاستاذ جودت لم يعطني جوابا عن كونها ستنشر او لا تنشر ، وانما ربط القرار برأي لجنة القراءة أولا واخيرا ؟ وهل يدان كاتب اذا قدم نتاجه الى دار صغيرة او كبيرة للنشر ؟ وهل لم يفعل النساج الا بعض ذلك حين كان يقدم اعماله الى دور النشر متوددا متلطفا ؟ أم ان دارا مثل

فلاماريون ولاروس والمعارف ودار الآداب وسواهن من الدور ، يتنافس على نشر ما يكتب النساج ؟ اني أسألك : من المنتهز والمستغل ؟ الكاتب أم دار النشر ؟ وماذا ترى اني افدت من الهلال ؟

ويمضي الاستاذ النساج في التزييف ... فهو يغير الزمان فيجعل العام غير العام ، والعقد غير العقد ، كما يغير المكان فينقل تيزي وزو على رأس الثور الاسطوري خمسمائة كلم ليجعلها تقيم بناحية وهران... يمضي في بعض هذا فيقول :

« وسيكون حديثنا ... عن كتاب نار ونور لانه يتناول الثورة الجزائرية في اواخر ١٩٧٥ . اي بعد اندلاع الثورة الشعبية العظيمة في الجزائر ، بثلاثين عاما ... » . واضعف ما في هذا الكلام انه غير ذكي ، وانه مشحون بالمتناقضات ، وانه يزيف حقائق التاريخ جهلا . اما عدم الذكاء فيبدو في تناقض الكاتب الذي يعترف بان « نار ونور » كانت عرضت على دار الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر فرفضت نشرها . وينشأ عن ذلك ان الرواية لا تصور الثورة الجزائرية في اواخر سنة ١٩٧٥ ، وانما كانت قد كتبت من قبل بكثير ، لأن عرضها على « الاسنيد » ينشأ عنه ضرورة مضي زمان لا يجوز ان يكون اقل من عامين لاعطاء الجواب بالرفض او بالقبول . فما يصنع الكاتب بهذا الزمان الطويل الذي طواه ، ووثب به الى اواخر سنة ٧٥ ، وهو تاريخ صدور الرواية بالقاهرة ؟

والتناقض الثاني ان الكاتب يزعم ان صاحب الرواية التقى بالاستاذ جودت في عام ١٩٧٢ (اي في عام ١٩٧٣ على الاصح) ، ثم يعود فيقول بان الرواية تتناول الثورة الجزائرية في سنة ١٩٧٥ . فكيف يستقيم هذا الكلام الهراء ؟ واي التواريخ احق ان يتبع في كلام الاستاذ النساج ؟

والحقيقة التاريخية ان الرواية كتبت في صيف سنة ١٩٦٤ بوهران، ولم تكن يومئذ اي دار حكومية للنشر بالجزائر ، فبقيت مخطوطة الى أوائل السبعينات ، حيث قدمت الى الاسنيد التي لم ترفضها رسميا ، والمسؤولون في هذه الدار لا يزالون احياء ، وفي ادارة الشركة وثائق ان ماتوا ، فانك ستبحث الف سنة وسنة دون ان تعثر على حرف واحد يثبت ان شركة الاسنيد رفضت « نار ونور » ، وانما التثاقل في الجواب النهائي هو الذي دفعنا الى سحبها ، والتماس وجوه اخرى لنشرها . وقد تلقيت وعدا بنشرها في جريدة « الشعب » ربيع سنة احدى وسبعين ، ولكن ذلك لم يتم لأسباب لا تعود الى رداءة الرواية .. وازمة النشر في الجزائر مما يعاني منه الأدباء .

ولكن لنفترض جدلا ان الشركة الوطنية للنشر والتوزيع رفضت نشر هذه الرواية حقا ، وقبلت نشرها الهلال ، فهل ينشأ عن ذلك بالضرورة ما زعمته انت ، من ان الرواية رفضت في الجزائر لرداءتها ؟

اني أسألك : منذ كم كتبت مقالتك هذه حول الرواية ؟ ولم لم تنشرها قبل اليوم ؟ أليس ذلك يعود ، وهذا حق لا ريب فيه ، الى انك عرضتها على أكثر من مجلة عربية ، ورفضت نشرها ؟ فهل تلام «الآداب» الغراء الذائعة الصيت ، العظيمة السمعة ، حين نشرتها لك اليوم ؟

واما تزييف حقائق التاريخ فيبدو في هذه العبارة صارخا ضاحكا باكيا جميعا ، لانها صدرت عن استاذ ، ويدعي انه ناقد لان الناقد حين يستحيل الى مزور للتاريخ ، يجب ان تسحب منه الثقة ، ويعتبر كلامه كله لغوا باطلا . اما دليلنا على هذه المزاعم فان النساج يزور تاريخ اندلاع ثورة التحرير في الجزائر ، فيعود به الى الوراء تسع سنوات كاملات . فانظروا الى ارقام التاريخ كيف تزور ؟ وانظروا ، اذن ، الى هذا الجهل الفاضح بتاريخ أكبر ثورة عربية وافريقية في القرن العشرين ؟ ان « اي » من معانيها التفسير ، وانت ادعيت في مقالك انني تغلب علي النزعة التعليمية ، وقد وقعت ، انت ، فيما فررت منه ، كما كان يقول القدماء ، فاذا أنت تفسر باطلا بباطل ، وتزييفا بتزييف ، حين تقول : « .. يتناول الثورة الجزائرية في اواخر ١٩٧٥ . اي بعد اندلاع الثورة الشعبية العظيمة في الجزائر بثلاثين عاما » . ومن المستبعد ان يكون النساج فكر في حوادث ثامن مايو ، وليس هناك مؤرخ يؤرخ بهذه السنة التي يتخيلها النساج . ويؤيد مذهبنا انه ، كما سنرى ، يجعل يوم ١٩ يونيو ، يوم ١٠ يونيو . وهي تواريخ لا توجد الا في ذهن الكاتب وحده ، فلا الرواية تصور الثورة الجزائرية في اواخر سنة خمس وسبعين ، ولا هي نشرت بعد ثلاثين عاما من اندلاع ثورة التحرير التي قامت ، رسميا وتاريخيا ، في فاتح نوفمبر من سنة اربع وخمسين من هذا القرن .

اما ما يسديه النساج من نصائح « ابوية » ، ودعوات « بابوية » الى الادباء الجزائريين فهم ليسوا مفتقرين اليها ، فلهم شخصيتهم الأدبية القوية ، ولهم ايديولوجيتهم الثورية الاشتراكية . وكان اولى له ان يسدي بعض ذلك او كله الى سواهم ... وقديما نصح لنا المعلم سقراط بأن نبدأ بانفسنا .

وأعود لأسألك : من قال لك اني كنت بعيدا عن الثورة الجزائرية ؟ وماذا تصنع بشهادة النضال التي أحمل ؟ وهل تحسب انت أن الذي حتمت عليه الظروف القاسية ان يغادر وطنه ليلتجيء اضطرارا لا يعتبر ثوريا ؟ وهل تعتبر ، انت ، الآن الزعماء الفلسطينيين غير ثوريين ولا مناضلين ، لان المفروض حسب منطقك ، ان يؤوبوا الى بيفن القذر ، ليلقي عليهم القبض ، ويحكم عليهم بالموت ، ودليدة تغني لهم في المطار بالعربية : « سلامة .. سلامة ! .. » ؟

وما مفهوم النضال في ذهنك ؟ وماذا تقول عن قادة الثورة الجزائرية الذين كان كثير منهم خارج الوطن ؟ وماذا تقول عن ديغول الذي فر من وطنه فرنسا ، اثناء الحرب الثانية ، ليلتجيء الى لندن ؟ فهل يعتبر الشعب الفرنسي غبيا حين اعتبر هذا السياسي من اكبر رجالاته ؟ وماذا تقول عن الثوار الصحراويين والزمباويين اليوم ؟ لعل الذي حملك على الوقوع في هذه الترهات : جهلك بتاريخ الثورات ، وعدم مشاركتك في اي منها لا من قريب ولا من بعيد . ورجل من صفاته بعض هذا ، لا يستطيع ان يقوم ادبا يتحدث عن الثورة الجزائرية ، ولو اراد .

هل تعلم — يا من لا يعلم شيئا حقيقيا دقيقا عن الثورة الجزائرية، حتى تاريخ اندلاعها الذي تعرفه العجائز العربيات على امتداد الوطن العربي كله — ان قرية « مجيعة » التي كان الكاتب يقطنها ، قنبلها الاستعمار الفرنسي فهدم ديارها ، ومحا آثارها ، وأرغم سكانها على النزوح عنها ، حتى لا يساعدوا الثوار ، بعد معركة ظافرة لهم تدعى في تاريخ الثورة الجزائرية بـ « معركة الصبابنة » ؟ وهل تعلم بأن الجزائري — والجزائرية ايضا — حيثما وجد من قارات العالم (١٩٥٤ — ١٩٦٢) كان منظما في خلايا جبهة التحرير الوطني : يجتمع مرة في خليته كل اسبوع ، ويقدم مبلغا ماليا الى الثورة كل شهر ، وينفذ اوامر

القيادة الثورية مهما كانت ؟ ام كنت ترى ان الثورة الجزائرية نجحت بالخطب والله أكبر ؟

اما وقد حاسبتني ، فاني سأحاسبك أيضا ، وأسألك : اين كنت أنت في سنوات ثمان واربعين ، وست وخمسين ، وسبع وستين ، وثلاث وسبعين ؟ وماذا كانت مشاركتك في المواقف النضالية الرائعة التي وقفها الشعب العربي في مصر ؟ ماذا صنعت انت في كل هذا ؟ واين كنت ؟ ربما كنت حيث كنت في نوفمبر ٧٧ .

اما حصول كاتب الرواية على دكتوراه الطور الثالث في فن المقامات ، فما ذلك بعيب عند الجامعيين الاكفاء . وفن المقامات يعتبر بحق ، كما يرى ذلك نقاد من العرب والغرب ، بداية للقصة العربية التي هيأت انت في جانب منها شهادتك ، لو اتيح للفكر العربي ان يتطور على النحو المنتظر . فأنت بحثت في الفرع ، من حيث بحثت انا في الاصل . ولك ان تعلم بان الشهادات لا تعني ابدا العلم ، وانما هي اوراق شقية ينالها الشخص ويقدمها الى الادارة التي يعمل فيها ، ليحصل بها على قوته . اما العلم الحقيقي فهو في البحث والتحصيل المستقلين . واقرر مرة اخرى ، بان دراسة التراث ليس مما يشين ، بل مما يشرف وانت على كل حال لا تستطيع ان تفهم مقامة واحدة مع انها مكتوبة بلغة الضاد ، وهذا من اكبر عيوب اصحاب المعاصرة السطحية التي لا تقوم على جذور ، وقد انقطع منها الرأس . ونحن قد رأينا اندري ميكايل يكتب دراسة عن شعر لبيد ، ويقرر في بعضها ان كثيرا من هذا الشعر يعتبر حديثا جدا . فمقتك للتراث ، لا يعني نبذنا له ، وازورارك عن القديم ، لا يعني الا انك لا تعرف الحديث . والمقامات القديمة لم تمنعني اليوم من أن اهيىء بالفرنسية بباريس ، دكتوراه الدولة في الأدب المعاصر . اما ادعاؤك بان رسالتي حول المقامات لم تطبع ، فذلك خطأ ، لانك ابدا تفكر الى الوراء وتؤمن بالرجعة ، فانت تعيش بوهمك في سنة ١٩٧٤ . وان لم تصدق فأسأل الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر .

ومما جاء في مقال النساج المتحامل قوله : « هذا المؤلف آذن تلقى تعليما تقليديا بقريته ... ولم يرغب لذاته البقاء على هذه الارض العربية التي كانت واقعة تحت الاستعمار .. وانما آثر الابتعاد ، لكن الى أين ؟ الى فرنسا المستعمرة التي تستوطن ارضه ، وتنتهك حرمة شعبه ... وهو لم يهرب (!!) بحثا عن وسيلة للنضال ، او جريا وراء مبادىء تحررية ، او كشفا لاساليب دعائية لثورة شعبه ، وانما ابتعد لمصلحة خاصة جدا جدا (!!) هي العمل الخاص الفردي الذاتي المتعلق به وحده دون غيره » .

ان أي كاتب من الكتاب اذا تلقى تعليما تقليديا لا يقدح ذلك في شخصيته اذا اصبح شيئا . والكتاب والمثقفون الجزائريون الذين عاصروا الثورة الجزائرية جميعا تلقوا تعليما تقليديا ، الا فئة قليلة مستثناة . وطه حسين ممن تلقى تعليما تقليديا في قريته ، ثم في الازهر . ولكنه نال درجة جامعية من باريس ، وأصبح من اكبر الادباء . فأين كنت تريدني ان اذهب والاستعمار جاثم ، والظلم متسلط ، والجهل منتشر ؟ أأذهب الى مدارس الفرنسيين ؟ اني كنت ابن فلاح فقير ، ولم أكن ابن اقطاعي يقيم في المدينة ؟ وهل اذا عيرك طالب بمدرج الابراهيمي بانك ابن فلاح متخلف ، بعد ان استفززت عواطفه ، تحاول اليوم ان تلتجىء الى « العوض » كما يقول علماء النفس ، لتنفس عن قلبك ؟

نعم ، لقد تلقيت تعليما تقليديا بقريتي ، وكنت احرث على الحمير ، وآكل خبز الشعير ، وأشرب من ماء الغدير ، وأنام على الحصير ، (ولا تنزعج من هذه الاسجاع التي تلائم المقام : فهي ان شئت للتعظيم وان شئت للتحقير) ولكني تطورت وتعلمت في جامعات عربية وغربية ، وأصبحت الان اكتب ابحاثي للهيئة الوطنية للبحث العلمي باللغة الفرنسية، واصبحت اقرأ الان روب ، ورولان بارت ، وفوكول ، وجنيت ، ودريدا ، وتودوروف ، وفلاديمير بروب ، وسطروس ... وسوى هؤلاء من اصحاب العلم والنظريات النقدية التي ادت الى تأسيس ما يمكن تسميته بـ « علم الادب » . ام كنت تحسبني الآن عاكفا على تلاوة الاوراد ، متعاميا عن ثقافة العصر ، مرددا : « الله حي ! الله حي ...! » .

كيف تتدخل فيما لا يعنيك من امر الناس ، فتحاسبني لانني سافرت الى فرنسا من أجل العمل الكاد بها ؟ هل كنت تعلم ان اسرتي كانت فقيرة ، وما كان يمكنها ان توفر لي القليل من المال لطلب العلم ؟ وهل تعلم ان فرنسا انما كانت تعطي منحها للذين يدرسون باللغة الفرنسية فقط ، اما اصحاب العربية فكانت تصب عليهم اسواط العذاب ؟ وهل كنت تعلم بانني انما سافرت لفرنسا ، لاعمل في افران الاستوري النارية التي « تشوي » الوجوه فعلا ، من أجل جمع بعض الفرنكات للالتحاق بمعهد آبن باديس ؟ وهل كنت تعلم بأن الجزائر تجاورها سبعة بلدان ، وقد كانت كلها مستعمرة اما من فرنسا ، واما من ايطاليا ، واما من اسبانيا : فأين أذهب ؟ وهل اصبح العمل الشريف مسة يدان عليها الناس ؟

ثم هل علمت بان ذهاب كاتب الرواية الى العمل بفرنسا كان قبل قيام ثورة التحرير ؟ فهل يعتبر مليما من يجهل ما يخبئه المستقبل من احداث ، بحيث يبقى في قريته يقتله الجوع مستسلما للقضاء والقدر ، ينتظر الوحي من السماء عساها ان تنبئه بتاريخ اندلاع الثورة ، حتى لا يلومه اليوم كاتب مصري (لا تنزعج من هذه النسبة ، فقد قلت لي أنت : الجزائري ، مرتين اثنتين — والبادىء اظلم) يقال له النساج . ان كاتب الرواية في صباه اراد ان يطلب العلم ، الذي هو حق لكل انسان وليس ميزة ارستقراطية كما يراه النساج البورجوازي المفكر فلم يجد المال ، فبحث عن العمل في فرنسا المستعمرة ، لان فرنسا المستعمرة هذه ذاتها ، كانت موجودة بالجزائر ، ولم توفر للناس العمل فيها ، فهل كان الفتى يذهب ليبحث عن العمل عند ابناء يعقوب ... !؟ ان فرنسا كانت موجودة بفرنسا — أرضها — نفسها ، وكانت موجودة بالجزائر التي هي غير أرضها ، ولكن أمر طردها لم يكن قضية شخص واحد حقير مهما عظم ، وانما كان قضية شعب بأسره ، وذلك ما كان .

واني أسألك : هل تعلم بأن هوشي مينه ، الزعيم الفيتنامي العظيم ، كان يعمل بفرنسا قبل ان يصبح زعيما ؟

اما تعييرك لي بالتعليم ، فلا أدري ما اقول لك ؟ انك لو كنت ممن يعقل لما عيرت شخصا تعلم اللغة العربية ، في عهد كان الاستعمار الفرنسي فيه يخنق كل متعلميها ومعلميها معا بطريقة او بأخرى . انك في هذه بالذات حرمت التفكير السليم ، وابنت عن بعض افكارك التي تشبه افكار الاقطاعيين الذين يرون التعليم يجب أن يكون وقفا على طبقة خاصة . الا ترى بأن التعلم في عهد الاستعمار ، في تلك الظروف

المدلهمة ، نضال بعينه لا ينقصه شيء ؟ ثم كيف يعقل لدى من له المام بأبسط مبادىء النقد النقليدي الذي لا تعرف سواه ، آن يتعلم شخص في الجزائر اللغة العربية بقسنطينة ، مهد النضال والعلم ، اثنـــاء السنة الدراسية (٥٤ ــ ٥٥) والثورة في عنفوانها ترمي بالحمـــم كالبركان الهائل الهادر ، دون ان يتأثر بأحداث هذه الثورة ، الا ان يكون معتوها مخبولا اصم ابكم اعمى ، ولا اخاله مع ذلك ! وما قولك في ان معظم تلاميذ ابن باديس بقنسطينة التحقوا بالثوار ، واستشهد كثير منهم ؟

والاستاذ النساج ، حين يعدمه الخيال الخلاق ، يفزع الى الاوهام ليغترف منها افكاره الرجعية فتراه يتقول على كاتب الرواية : «.. بينما هو في الجزائر يدرس ليكون متميزا (!) من طبقة خاصة (!) ... والفترة الزمنية قصيرة جداً جدا ... انها سنة دراسية ، وليست سنـــة ميلادية » .

فما هذا الكلام ؟ ايعير الشخص اذا تعلم وعمل ؟ اي تميز ؟ وهل تعتقد ان الذي كان يدرس العربية في عهد الاستعمار بالجزائر ، كـان يدرسها من اجل وظيف أو امتياز يناله ؟ الم تعلم بأن الناس في تلـك الفترة عندنا انما كانوا يدرسون العلم من اجل العلم ، وكانوا يتعللون في مجالسهم البئيسة ويتعزون بهذا القول المأثور : « طلبنا العلم لغيـر الله ، فأبى آن يكون الا لله ! » ؟ انه لمن المحزن ان يصدر مثل هـذا القول عن شخص مثلك .

ثم ماذا تقصد بقولك : « طبقة خاصة » ؟ فهل ابن فقير بئيس لم يكن أبوه يملك حتى حمارا حقيرا ، يستطيع ان يوصف بانه طبقـي ، ومتميز ، لو لم يكن الجهل بحياة الكاتب هو الذي جعلك تزخرف هـذا الهراء . آن الذين يعرفون الدار التي كان الكاتب يقطنها مع اسرته في البادية العطشى ، والواقعة في احراش بورية ليس فيها الا الافاعـي والعقارب ، سيقتلهم الضحك حين يقرأون النساج ، وسيدركون بـلا ريب ان كلامه ليس كذبا مفضوحا فحسب ، ولكنه سخف .

ومن روائع تهويلات النساج التي تدل على براعته الفائقة فـي الجهل بالتعبير العربي الذي زعم انه تعلمه ، قوله : « سنة ميلادية » . فالكاتب خانه التعبير حتى عن كيف يصوغ حديثه حين كان يتحدث عن العام ، لفرط غضبه حين شاهد الرواية تباع بالقاهرة ، ويقرؤهـا الناس ، فاذا هو يعزو الزمان الى السيد المسيح ، على غير ما يتحدث به الناس في التعبير عن هذه الفكرة بالذات ... انه لا يقال هكذا ابدا ، وعليك ان تبحث انت بنفسك عن كيف تعبر ...

ومن تزييفات الاستاذ النساج وكذبه على قراء الآداب قولـه : « واستمر (كاتب الرواية) بالمغرب طويلا » . وقد اصطنعها الرجـل بين مزدوجين كأنها مأخوذة من ترجمة حياتي . وهي خيانة علمية نحاسب عليها طلابنا حتى في الثانوي . فغلاف الكتاب لا يبرح قائما ، وليـس فيه اي لفظ يقال له « طويلا » . وما كان لنا لنتعرض لهذه الجزئية ، لولا ان النساج أقام عليها نتيجة تتمثل في كون صاحب الرواية كان منعزلا عن المجتمع الجزائري ، ولا يرتبط به الا بالاسم ! .. لماذا ؟ لانه عـاد الى الجزائر ، فيما يكذب النساج متعمداً ، خلال سنة ثمان وستين ! وهذا من ابشع الكذب واقبح الجهل يرتكبهما النساج مختارا لا مضطرا ، فكيف يستطيع افاك ان يؤرخ للرجال ، آذا كان يكذب عليهم وهم احياء يتحركون ويبطشون ؟ وحتى لا يكون قولي ادعاء ، ها انذا اورد كـلام النساج الذي يقول : « ... وهو يؤثر ان يعود الى الجزائر ليس فقط بعد الاستقلال ، بل بعد ان تستنب كل الامور المهيئة لامتيازات هـذه القلة التي جاءت لتلتقط الثمرة (!) ... بعد الانتفاضة الثورية في ١٠ يونيو (!) ١٩٦٥ ، اذ يعود المؤلف ١٩٦٨ (!) ليعد دراسته العاليـة في المقامة ، مبتعداً كذلك في دراسته بالزمان وبالشخوص وبالمكان وبالموضوع وباللغة وبالفكر ... » .

ويضيف النساج كاذبا على الجميع (على الكاتب ، وعلـى تاريخ الشعب الجزائري المعاصر ، وعلى قراء « الآداب ») :

« والمعلومات التي نقلناها مدونة على غلاف كتاب مطبوع » .

وكأنه كان يلح على هذا التزييف ويصر على هذه الفضائح التـي أوقعه فيها جهله وحقده معا ، ولذلك نراه يؤكد الكذبـة بأختها بدون أرعواء في موطن آخر من مقاله الشديد التشويش : « وعاد (صاحـب الرواية) بعد الاستقلال بست سنوات او اكثر » .

فأوضح الان للقراء آلزيف الوارد في مقولة هذا الرجل الذي مـا قصد الى العلم ولا الى الأدب من وراء كتابة هذا الهراء :

١ ــ ان كاتب الرواية عاد الى الجزائر في صيف سنة ثلاث وستين، وهي السنة التي تخرج فيها . وكان قبل ذلك عاد الى الجزائر مـع اللاجئين بمجرد ايقاف النار .

٢ ــ ان التصحيح الثوري في الجزائر لم يقع في ١٠ يونيو سنـة ١٩٦٥ ، وانما وقع يوم السبت ١٩ يونيو ١٩٦٥ ، فلم زور النسـاج تاريخ الشعب الجزائري ؟ فهو كمن جعل ثورة ٢٣ يوليو ، في ١٤ مـن هذا الشهر ذاته ، وهو اليوم يذكرنا بعيد وطني فرنسي . ولو كـان النساج ممن لا يدعي دقة الالمام بالقضايا الجزائرية والمغربية بوجـه عام ، لأهملناه ولما لمناه . ولكن كيف نسكت عمن نصب نفسه مختصـا في الدراسات المغربية وأصبح يكذب على الناس ، وقد نسي او جهـل ان الاقدمين كانوا يقولون : « كذبة المنبر بلقاء ! » . والمؤلم حقا ان الدكتور النساج ظل يقطن طوال اربع سنوات قرب اكبر ملعب في الغرب الجزائري كله وهو « ملعب ١٩ جوان » ، ومع ذلك لم يذكر شيئـا من هذا ، مما يبرهن للقارىء بان هذا الرجل لم يكن في الجزائر يحيا بقلبـه وروحه ، وانما كان يحيا بجسمه فقط ... وهذا يكذب بالدليل المنطقي على ان الحضور لا يكون بالجسم ، وآن الارتباط بالوطن او بأي مكـان آخر لا يكون ماديا فقط في جميع الأحوال ، وانما يكون ارتباطا روحيـا ووجدانيا ، ولا سيما اذا كان قد قضى فيه الشخص ثمانية عشر عامـا من ايام صباه ، قبل ان يغادره مضطرا ليتغيب عنه جسميا بضـع سنوات .

٣ ــ آن موضوع الرسالة لا حق لك في النعي عليه ، لانه امـر يتصل بالميول العلمية ، وقد سبق ان قررت ما قررت حول هذه القضية، في بعض هذا المقال . وقد سبق لي ان قلت ايضا : بأن المقامة الراقية في كثير من خصائصها الفنية ، قصة تقليدية لا ينقصها شيء ، ومن ذلك المضيرية . والمستشرقون حين يتحدثون عن الأدب العربـي ويترجمون طرفا من النتاج القصصي ، يبتدئون بالمقامة ، لانهم يعتبرونها هي أيضا قصة . فهل يتهم المستشرقون بأنهم يجهلون التمييز بين القصـة وغير القصة . وقد ذهب صاحب كتاب « قصص عربية » وهو روني خوام الى ابعد من ذلك فراح يبرهن بالحجة العلمية على ان المقامة هي اصـل القصة القصيرة عند الغربيين انفسهم ، وأبرز الاثر الذي تركه هـذا

الفن في نتاج اقدم كاتب ايطالي كبير وهو بوكاس (١٣١٣ ــ ١٣٧٥) في الوقت الذي برهن فيه على تأثير بوكاس في الادباء الفرنسيين ، مما جعله يخرج بنتيجة علمية عظيمة خطيرة ، وهي ان للمقامة العربية فضلا كبيرا على الفن القصصي في الغرب بوجه عام ، وفي ايطاليا وفرنسا بوجه خاص (انظر المصدر السابق : صت : ٩ ــ ٣٢) . فهل يحق للمختص العربي في القصة الحديثة ، ممن يحترمون انفسهم ، ان يجهل عظمة هذا الفن الادبي العربي الذي كان هو في الاصل ، مصدرا للقصة الحديثة في العالم كله ؟ ان الاستاذ النساج لا يستحي ان يجهل هذا فقط ، ولكنه يوبخ الذين يدرسون هذا الفن الادبي ليربطوه بحاضر القصة العربية التي يزعم من لا علم له ، انها اثر من آثار الآداب الغربية .

ولو هيأت رسالتي في فن ادبي ، يفترض وجوده قبل الجاهلية الاولى نفسها ، لما ندمت على ذلك ، بعد ان اتصلت بيني وبين الدراسات الغربية المعلمنة الاسباب ، وعدت اقرأ آخر النظريات التي تلقي بها دار « منتصف الليل » . فما عار ان يجمع شخص بين التراث والمعاصرة، وانما العيب ان يظل التراثي منغلقا متحجرا جامداً ، والمعاصر جاهلا مشمخرا بأنفه ، جاهلا أصل أدبه وثقافته . ولا احسب ان عاقلا يخالفني في ان التراث يجب ان يبعث ويوظف لحاضر الامة العربية المتحنة في هذا الحاضر . ولا يمكن ان يكون هذا الاحياء الا بالمناهج العلمية الحديثة المتطورة التي تعتمد على الرياضيات والآلات الالكترونية . فلا يمكن ان يدرس شعر المتنبي دراسة علمية تجري على نصه ، الا بمنهج مورفولوجي بنيوي . وقد رأينا اندري ميكائيل يخرج دراسة حول حكاية من حكايات ألف ليلة وليلة ، في منهج بنيوي مورفولوجي رائع ، استغرق اكثر من ثلاثمائة صفحة : فقد درس الكاتب الشخصيات بطريقة بنيوية فذة ، تقوم على الجداول والنسب المئوية المتعددة المقارنة . ولو اطلع عليه الدكتور النساج لكنت خشيت ان يغرقه الحياء في النيل مما يكتب هو عن القصة حين ينقدها ، ولا سيما ترهاته التي حاول ان ينقد بها « نار ونور » ، حيث اعتمد منهجا انطباعيا ذاتيا تهجميا انشائيا ، كله عواطف ومغالطات . فالى الله نشكو ما آل اليه امر النقد العربي ، الى ان يقوم جيل مثقف حقا بثقافة عصرية فعلية متطورة لينفض عنه هذه التقريظات والتقريعات والانطباعات الذاتية .

٤ ــ ان رواية « نار ونور » كتبت في سنة ١٩٦٤ (ولو فتح تحقيق قضائي لتقدم لي شهود يؤيدونني ، ولقدمت وثائق مخطوطة لا يمكن للعلم ان يطعن في تاريخها) ، فما صلة رسالة جامعية نوقشت في سنة ١٩٧٠، بشخصيات رواية وصياغتها ، وقد كتبت قبل ذلك بست سنوات ؟ وما يمنع المرء علميا ، ان يبحث في اصول الشعر الجاهلي وما قبل الجاهلي ان كان هناك تاريخ معروف له ، وفي الوقت ذاته يكتب الرواية الجديدة نفسها ، بطريقة جوبوسكي ، وسمويل بيكي ، او حتى زينو كازينو .. ؟

٥ ــ اما ما يدعيه النساج من انه نقل بعض تلك المعلومات من غلاف الكتاب ، فهو محض افتراء . وغلاف الكتاب شاهد على ذلك ، فلا مدعاة للاطالة .

والحق اننا لو ذهبنا نناقش النساج وننقض أقواله قولا قولا ، ونكشف عما في طياتها من تزييف طورا ، وجهل طوراً ثانيا ، لملأنا من هذا الحديث مجلدا ، ولذلك نجتزىء بهذا لننتقل الى مناقشته قليلا في رأيه حول الرواية . ولو لم يتطرف النساج ، والتزم المنهج العلمي الموضوعي ، ولم يبد غضبه ، ويكشف عن نزقه ، لاحترمنا رأيه في الرواية وسكتنا عنه ، لاننا لا ننتظر من احد ان يقدم في أي عمل من اعمالنا قصيدة مدح نفضح بالنفاق والرياء ، ولكن النساج لم يلتزم الاخلاق العامة التي تعارف الكتاب عليها شرقا وغربا ، فوجب الرد عليه في بعض المواطن التي زل فيها .

ومما يقرر من رأي حول الرواية قوله :

« ببساطة شديدة جدا (وقد اكثر الرجل من لفظ « جدا » في مقاله هذا حتى نال منه مقدارا كبيرا) تحكي الصفحات بطريقة انشائية ، مليئة بالتقعر اللغوي ، كيف اضرب الطلاب في مدينة وهران عن الدروس، وكيف كانوا يتظاهرون في الشوارع ، بأسلوب بعيد جدا (وهذه «جدا» اخرى يستهلكها النساج) عن الاسلوب الروائي ، وفي شكل لا يرتبط بفن الرواية في اواخر السبعينات .. » .

الحمد لله ! اخيرا وصل الناقد البارع الى نص الرواية ، بعد ان هجا صاحبها بالنثر السمج ، وعيره طوراً بالفقر ، وطورا بالطبقية ، وطورا بالنقليدية في التعليم ، وطورا رابعا بالتميز في هذا التعليم . والنساج في ذلك يعتبر بارعا في اتقان اسلوب التقابل . فهو يجعل كاتب الرواية تقليديا في دراسته ، ولكنه ينسى هذا ويقرر بعد قليل بانه حصل على مؤهل جامعي عال ، لم يحصل عليه غيره ، فيما يزعم . وهو من وجهة يعترف ضمنيا انه كاتب روائي ، والدليل على ذلك انه تحدث عن الشخصيات ــ حديثا تقليديا ساذجا لو قرأه البنيويون لماتوا كمدا غيرة على العلم والنقد كيف يعبث بهما ــ والحوار والصراع فيها ، وان كان حديث المتحامل الحاقد ، ولكنه لا يتردد في ان يعزوني الى اصحاب الدراسات القديمة جهلا ، وهو لا يعلم انني في دراساتي الاخيرة أطبق المنهج البنيوي ، واصطنع السنكرونيزية طورا ، والدياكرونيزية طورا ثانيا في دراسة النص الادبي وفهم خصائصه . ثم هو يجعلني ممن كتب عن القضايا الكبرى في الجزائر كاللغة العربية ، والتعريب ، والثورة الثقافية ... ولكنه لا يخجل ان يقدمني الى القراء على أني لا ارتبط بالجزائر الا بالاسم . ثم هو يجعل كاتب الرواية في فرنسا ، انما « يعمل ويكدح ليزيد انتاج وثروة وتطور فرنسا » (والاسلوب العربي الاصيل يأبى هذه الصياغة الهجينة ، وكان عليك ان تستكمل ادوات الكتابة قبل ان تكتب ، بل قبل ان تنقد) ، بينما يجعله « في الجزائر يدرس ليكون متميزا ، من طبقة خاصة (!) » . فكاتب الرواية يجب ان لا يكون بشرا من الناس ، لان الناقد يصوره وكأنه شيطان رجيم يتمثل في صور شتى ، فهو هنا ثري مترف طبقي بورجوازي ، وهو هناك عامل كادح أجير بالساعة حقير .

وليس على الله بمستنكر ان يجمع العالم في واحد ! !

فكاتب الرواية في رأي النساج يصدق عليه المثل الفرنسي : « ان جان هو الذي يبكي ، وجان هو الذي يضحك !! » .

وهو حين آب الى مصر الشقيقة العزيزة ، سولت له نفسه انه اعلم الناس بالدراسات المغربية عامة ، والجزائرية خاصة ، فراح يكتب في كثير من المواطن والمواقف بغير علم ، واسوأ من ذلك ، بغير موضوعية وبازدراء واستعلاء ، كأن الله لم يخلق على هذه الارض شخصا يضاهيه علما وذكاء !! وهو حين يتقمص تلك الشخصية التي تزعم انها تلم بهذا العالم من القضايا والموضوعات ، يصدق عليه المثل الشعبي الجزائري : « الله يجملني غريب ونكذب ! » ، او المثل الفرنسي : « ما اجمل

الكذب لمن يأتي من بعيد ! » . وليغفر لي الصديق القديم الاستاذ النساج هذه الامثال التي جعلته مضربا لها ، فهي ليست قديمة كما ترى ، وهي على كل حال خالية من اللغة التي تستغربها فتستقعرها ، وتجهلها فتستعضلها ، بل بعضها حديث « جدا جدا » ، وبعضها غربي « جدا جدا » ، ايضا .

ولنحمد الله تارة اخرى ! فلقد وصل صاحبي الى الرواية ونصها ، بعد ان استغرق شتمه لصاحبها ما لا يقل عن نصف المقال . ان مقالك لو كان موضوعا انشائيا تقدمه الى استاذ في مدرسة ثانوية لصفرك تصفيرا ، لان المقدمة فيه استغرقت نصفه ، وهذا مما يعاب على التلاميذ ، فكيف بالاساتذة ؟ ! ولكن شتم الرواية لم يكن بأقل من شتم صاحبها والاستخفاف به .

نعم انها تحكي قصة مظاهرات سخط على الاستعمار افضت الى تحرر واستقلال ، ولكن النساج حين جاء يكتب في سنة ٦٧ عن مظاهرات الشعب المصري الكريم ، لم يستطع كتابة رواية ، ولا قصة ، ولا حتى اقصوصة ، وانما كتب « غزلا » — لا ينتمي الى العفيف ولا الى الاباحي — يمدح به ، مع انها مظاهرات تأييد جاءت بعد انهزام ! ..

اما ما يتحدث عنه النساج من جهل كاتب الرواية بطبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة ، فان الامر كان يتعلق بمجتمع جزائري محافظ كل المحافظة . فلم يكن من الامانة التاريخية ان يصور كاتب الرواية المرأة المصرية وعلاقتها بالرجل في القاهرة مثلا ، وانما يتحدث عن المرأة الجزائرية في سنة ١٩٦٠ ، وليس سنة ١٩٧٥ كما اوحى النساج بذلك الى قراء الآداب ، مزيفا الحقيقة ، عابثا بثقتهم ، لان الرواية انما تدور ايام ثورة التحرير ، وكانت كتابتها بعد الاستقلال بسنتين فقط ، ومن الغبن ان يخوض الكاتب فيما يجهل . ومن اجل تلك المحافظة المضروبة على المجتمع الجزائري في تلك الفترة ، اضطر صاحب الرواية لان يجعل فاطمة قريبة لسعيد ، حتى يمكن اللقاء بينهما ، ولكنه لقاء من أجل خدمة الثورة ، لا من أجل اشباع رغباتهما الجنسية كما يريد النساج ، لانه يجهل ان الرجل كان يؤخذ بالظنة فقط ، فيما يتصل بهذه العلاقات المشبوهة التي يمكن ان تكون بين رجل وامرأة ، فالثورة الجزائرية قيم اخلاقية ايضا ، قبل ان تكون اي شيء اخر .

وينقم مني صاحب المقال ان فاطمة امست زعيمة فجأة ، وذلك مناقض للحبكة الفنية في الرواية ، او في الكلام « الماضي » كما يعتبرها النساج ، وهو لو تأمل تطور الاحداث في الرواية بعمق ، لاهتدى الى ان والدها كان يهرب الاسلحة من الجيش الفرنسي ، ولم يكن يثق في سعيد كل الثقة ، مخافة ان يستكشف السر مستكشف ، ولكن فاطمة بحكم بنوتها كانت تعلم كل شيء ، فلما القي القبض على قدور ابيها ، واخذ الى الابد ، وكانت تحب ابن عمتها سعيدا ، وكانت الى ذلك تعلم انه اصبح فدائيا ، اطلعته على السلاح ، ثم تزعمت بحكم كل هذه العوامل نساء الحي ، واصبحت تقودهن . فهل كان النقدود ينتظر من الروائي في هذه الحال ان يكتب فصلا يصف فيه كيف نصبت الفتاة مناضلة قائدة في الحي ؟ ثم اين خيال القارىء وذكاؤه ؟ ان الروائي او القصاص او حتى المسرحي لا يفصل كل شيء ، وانما يترك كثيرا من الجزئيات والملامح للقارىء او المشاهد او الناقد الذي من مهامه انه يوضح المواقف الغامضة في العمل الفني ، ويفصل الجزئيات التي تعمد الكاتب ان يهملها لغاية او لاخرى . وما كان النقد قط تهديما وتشنيعا .

والنساج في حقيقة الامر ، اذا جاوز هذه الامور العامة المتعلقة بالشخصيات المسطحة والمعمقة والمكعبة ، يقف حماره في العقبة ، وتصبح احكامه تافهة .

واما ما يرمي الناقد به صاحب الرواية من ضيق في الرؤية ، وتخلف في الرأي و... و ... و ... وكل ما يمكن ان يوصف به شخص امي بيّن الامية فان ابسط قارىء عربي يدرك ان التخلف العقلي انما يجب ان ينصب على كاتب المقال الذي شتم من حيث اراد ان ينقد ، وأساء الى العمال الجزائريين المهاجرين جميعا من حيث اراد ان يذم صاحب الرواية ، كما اساء الى جميع اللاجئين الجزائريين الذين فروا بانفسهم من اضطهاد الاستعمار الفرنسي ، بل اساء الى الثورة الجزائرية النظيفة .

وقد سبق ان بيّنا للنساج ان النقد التقليدي المنحاز الذي طالعنا به ، لا يعتد به اليوم عقلاء الجامعيين . لان الرأي اذا اصبح اجتهاديا او انطباعيا ، لا يعدو ان يكون هراء .

ويرى النساج ان شخصية خديجة ، اخت سعيد ، لا معنى لها . وهي وجهة نظر قد نحترمها له ، ولكن ما قول صاحب المقال في شخصيات « الكومبارس » في الاعمال الادبية الدرامية ؟ وهلا اهتدى الى ان وجود خديجة يعني اشياء كثيرة منها : ان ابا سعيد حين كان قتل في الحرب العالمية الثانية ، دفاعا عن فرنسا قسرا ، ترك اسرة تتألف من ثلاثة افراد ، ولم يكن منقطعا . والميت حين يترك اسرة يكون موته اشنع وأشد تأثيرا في النفس ممن لا يترك وراءه زوجا ولا اولادا . ومنها ان ظهورها يوحي بكيفية معاملة الجيش الاستعماري حين كان يغير على الحرمات فينتهكها ، فقد اراد جندي آن يفعل بعض ذلك بخديجة هذه ، ثم ان استشهاد سعيد آخر الامر ، يوحي بانه ترك اسرتين ، او مجموعتين من النساء ، هما اخته وامه ، وفاطمة وامها ، بعد ان كان قدور قد قتل ايضا . والنتيجة العامة ان الشعب الجزائري كله شارك في الثورة ، الا خونة قلة قضت عليهم هذه الثورة وقصمت ظهورهم ، وان الرجال كانوا يخرون صرعى من اجل الجزائر ويتركون الايامى في مهب الرياح ، على الرغم من ان الثورة رعت ، حين انتصرت ، كل هذه الفئات المتضررة من ظلم الاستعمار واضطهاده .

وواضح ان النساج تعمد التركيز على بعض مواطن الضعف في الرواية ، فبتر بعض العبارات بترا ، واوردها منقطعة عن سياقها ، ثم ضمنها مقاله من اجل الاساءة . وهي مغالطة علمية ينهى عنها الطلاب في الجامعة . فهل كل اسلوب الرواية على تلك الصورة التي استشهد بها النساج ؟ ثم ايهما افضل اذا كان العيب الفني واقعا : أتلك العربية العالية ، ام اصطناع حوار عامي قذر ، لا يفهمه اكثر من في قرية الكاتب او حيه ، وهو ما يريده النساج ، وكثير من انصار العامية امثال النساج ، وذلك حتى يظل الشعب العربي متخلفا لا يتحرك قيد انملة الى الامام ، وحيث لا يفهم عربي عربيا آخر ، الا اذا افصح العمل الادبي . ومشكلة الحوار في القصة ، في الحقيقة ، قضية ادبية كبيرة ، يعاني منها كتاب القصة العرب ، على عهدنا الحاضر . ايصطنعون عامية خالصة في الحوار ويستريحون ، ولكن اين الفن الرفيع الذي لا يمكن ان يدبج بعامية قاصرة ؟ ام يصطنعون فصحى ، ولكن اين الواقع ؟ أم يقفون موقفا وسطا فلا هم الى الفن ولا هم الى الواقع ؟ ..

ان اصطناع كاتب الرواية تلك اللغة له مبررات نفسية ، سيكشف

عنها النقاد حين يصبح النقد علما لا انطباعا وذاتية ، وقد كان النقـاد عابوا على طه حسين ، بعض العيب ، اصطناعه تلك اللغة العالية في « دعاء الكروان » ، و « شجرة البؤس » . ولكن لم يتهم احد طـه حسين بأنه تعليمي ، وانه انما كان يتمرس على كتابة التعبير . والذي يعود الى شجرة البؤس يجد لغة ادبية في منتهى العلو ، بما في ذلـك حوارها . والواقع ان النساج كان في نقده اقليميا متعصبا ، ولم يصدر قط عن فكر قومي متحرر تقدمي .

ومما يزعم النساج في مقاله المشوش ، ان صاحب الرواية لا يملك قاموسا لغويا فنيا ، وهو ، بالطبع ، محض افتراء . لان النساج ، ولنكرر ، لا يستطيع بمنهجه ان يكشف عن هذا القاموس الفني ، كشفا علميا دقيقا ، الا باجراء دراسة مورفولوجية على النص ، تقوم علـى المعطيات السانكرونيزية ، كما فعل باحثون غربيون بديوان بودلير الذي يحمل عنوان : « ازهار الشر » . وكما فعلوا أيضا ، وهذا اهـم ، باقصوصة قصيرة عنوانها : « الصديقان » . فقد استغرقت الدراسة البنيوية حولها زهاء ٢٥٠ صفحة ، مع ان نصها لا يجاوز بضع صفحات ولكن اين النساج من مثل هذا المنهج المتطور ، ومع ذلك يدعي لنفسه التطور الخارق ، وهو في الحقيقة لا يجتر الا قشورا من الثقافة المزيفة المضطربة التي لا تنتمي الى القديم الاصيل ، ولا الى الحديث المتطور الذي يصطنع النظريات الغربية المعاصرة ... واكبر مصيبته انه يعيش على « المحلية » والترجمة . فهو ينتظر عشرات الاعوام من اجل ان ينتفع منفعة ناقصة ببعض ما يترجم من الغرب الى العربية ، ثم يدعي ان صاحب الرواية ، متخلف ، وضيّق الرؤية ! فأيهما المتخلف ؟ !

ومن انفه ما ورد في مقال النساج قوله : « اما ان ينقل المؤلف (وهو يصطنع ذلك من باب ازدرائه واستعلائه) صفحات كاملة مـن مقالاته حول اللغة العربية ، والتعريب ، وابن باديس ، والثـورة الثقافية ، والثورة المسلحة ، ثم يدعي انه يقدم رواية ... فهذا هـو الزيف بعينه » .

ونحن نطالب ، باسم الضمير الادبي ، ان يفتح تحقيق علمي ، حول هذه القضية ، وتقع مقارنة بين نص الرواية ، واثارنا الادبية الاخرى ، حتى نرى من الكاذب المزيف ، ومن الذي يخدع القراء ويخون ثقتهم .

والنساج يعلم ان كاتب الرواية تحدث عن شخصيات ادبية اخرى، كشخصية الشهيد حوحو القصاص ، وسواه ، وانما تعمد ان يذكر ابن باديس لانه كان سلفيا . وهو بذلك ينال من الشعب الجزائري كلـه الذي يكبر ابن باديس ويسمي باسمه الشوارع والمؤسسات والمدن . فابن باديس كان مناضلا جزائريا قبل كل شيء ، بل يعتبر من اكبـر المناضلين العرب اطلاقا . وتعريضك به ، من حيث اردت التعـريض بصاحب الرواية ، لا يعني الا شيئا في نفسك معروفا .

ان النساج لو كان ذا ايديولوجية اسلامية ، يقيم الخمس ، ويصوم الشهر ، ويجتمع يوم الجمعة ، لجرينا معه في ذلك واكرمناه . وانـه لو كان ذا عقيدة مسيحية ، بروتستانية او غير بروتستانية : يقرأ الانجيل ويحسن التأويل ، ويذهب الى الكنيسة ، ويقيم القداس ، لاحترمناه واكبرناه . وانه لو كان ممن ينتمي الى اليهودية ، يضع على رأسـه الطاقية ، او « ميني » طاقية ، يصلي مع الحواريين في القدس عيـد الاضحى ، ولكن في البيعة لا في المسجد الاقصى ، لتركناه وما اختار ... وانه لو كان بوذيا ، يسبح في الارض زاهدا ، ويصوم الدهر ساجـدا عابدا ، لاجللناه ... وانه لو كان شيوعيا حقيقيا ، يناضل عن الضعفاء، ويحارب الطبقية والبذخ المفرط ، ويقف المواقف السياسية المشرفة ، لبايعناه . وانه لو كان اشتراكيا ، ماركسيا او غير ماركسي ، لجعلناه أخا لنا يتبوأ من قلوبنا مكانا .. ولكن النساج لا ينتمي الى اي من هذه المذاهب ، ولا الى اي من هذه الديانات ، وانما هو مذبذب لا من اولئـك ولا من هؤلاء ، ثم يعرض بكاتب الرواية ويكذب عليه ، لانه كتب عن ابن باديس المناضل النظيف . أم كان النساج يريد من صاحب الرواية ان يكتب عن هذه الشياطين التي استجنحت في الشهور الاخيرة ، واخذت تطير وتطير ، وكانت من قبل مقعدة لا تسير ! ؟ .

وبعد ، فاننا نرجو ان تحرق نار الرواية ما في نفس النساج من احقاد مترسبة ، بعد ان كانت أججت ما في قلبه من حسد كامن ، وخبث مقيم ، عسى أن يصفو خيالـه ، فيصلح حاله ، فينضم الـى طبقـة الكتاب الكبار « الشرفاء » الذين كانوا بالامس القريب يكتبون عن عودة الروح ، فلما غاب صاحب الروح لعنوه على منابرهم ، كما لعنت امية والد ابي الحنفية ، واصبحوا اليوم يكتبون ، بدون حياء ، عن عـودة الوعي ، ولا وعي ..... !

عبد الملك مرتاض